قصة قصيرة

« إلحقوا بي » !

بقلم: قاسم قاسم

هذه الليلة الثانية . كأن كل شيء متفق على أن يهدأ ويترقب . القمر وسعف النخيل. المراكب والكلاب. الطيور . الطحالب . الصخور . الاشجار . الاعشاب . الاضوية المتلألئة من بعيد في ضفة الشط الاخرى . انه الترقب المشحون بالتوتر والرهبة ذلك الذي يسيطر على المتجمعين قرب ضفة الشط المهيب الغامض . العائلة والجيران ونفر من الاهالي المشغولين بحادثة الغرق . دائرة من حزن وجد وارتجاف تلك التي يصنعونها حول نار تشتعل بمزيد من الحطب . الابدان ترتجف من البرد . والروح ؟ ... الروح ممن ترتجف ؟!

ان يكن ثمة همس فهو خفيض ، كابتهال ... أين اختفت ؟.. ابتلعها الموت !..

هذا الشاب المتصالب بعظام صدره العاري ، تكوي جسده النار . تذيب عنه الماء والبرد ، وتعطيه دفعة من روحها الساخنة . انه أخوها . الكل يرمقون غوصه المتوالي بتقديس وأسى . فرغم ان خاله يبحث بشبكة صيده عن جثتها ، الا انه لا يهدأ له جفن حتى يجدها . الليلة الثانية على غرقها . ليلة من ليالي شباط القاسية وهو مستمر في احماء جسده وشحنه بالدفء كي يقذفه في أعماق الموج المثلج ، الحاد مثل سكاكين ، ويغوص هناك . في كل بقعة يبحث . ثم يخرج ، تتلقفه الأم بالتسابيح . بدن شاحب ، منكمش ، في أوعية من صخر يخزن عذاباته .

المنطقة كلها تعجب كيف تغرق فتاة مثل « نبعة » .

كثير من المارين بعد الظهيرة على فسحة الرمل أمام الدار الطينية ، يتذكرون تلك الفتاة التي تسبح بثوبها الاخضر الداكن ، تسابق التيار . يتذكرون تلك الخفة المبهجة التي تغوص وتظهر بها . وأخوها أكثرهم انسياقا للتذكر . كانت تغلبه مذ كانا صغيرين . هي الاسبق دائما . أول ما وضعت ساقيها الصغيرتين في ماء الساقية ، جذبته من ذيل دشداشته وهو متردد ، ينظر للتيار بوجل : هيا ... ما بك ؟.. أنظر ! وارتمت في حضن الساقية وراحت تخبط بعشوائية ... هيا ! كبر وصار رجلا . صار صيادا ماهرا ، سباحا ماهرا ولم يقدر على مطاولتها في الغوص . يغوصان . يرفع رأسه من سطح الماء وينفضه بحركة رشيقة ، يلفظ الماء من حلقه ويظل لفترة هكذا وهي لما تزل تحت ، ثم يشق رأسها صفحة الماء من مكان ما ، بعيد عنه ، مثل رأس حصان يجمح بغتة ، انه لا ينسى كركرتها الاستفزازية ... تضحك عليه !

قال أخوها الصغير ، لصديقه ابن الجيران : خالي يلقي الشبكة ... ليصيد « نبيعة » !

ـ لن يجدوها ... ذهبت .

فرد عليه وملامحه الطفولية المبتردة توحي بتأكيد عال :

ـ ان « نبيعة » ... نفسها طويل .. وتظل كثيرا تحت الماء .. كأنها تبني بيتا هناك !

كان سليم عامل البناء ، جارهم ، يأتي كل عصر في الصيف ، ملطخا بالجص ، ينزع دشداشته ويثب الى الشط . كثيرا ما يصادفها تغسل صحونا أو ملابس . بل انه كان يتعجل الانفكاك عن العمل ليكون هناك لحظة تجيء وهي تتبختر حاملة الاشياء على رأسها ، ويروح من وسط الشط وهو يعوم ، يغني . كان يسكت ليعيب عليها تكبرها ، وهي تقول له : أنت لا تقدر على لوي اصبع واحد من أصابعي ... انك فتى .. بالامس صرت ! كانت تتحداه دائما : لا تقل انك .. في النقابة.. وكذا !..

ولكنه حين يذكرها بأيام الصغر ، عندما كان يغوص ليمسك شعرها ويجرها منه ، تسكت كأنها لا تسمع شيئا .

مرة كانت هي تسبح كعادتها بعد أن أنهت الغسيل، وجاء هو . استغربت كيف انه لم ينتهز الفرصة ويدخل الماء . خرجت تقطر ماء . لم تجد عباءتها . ومن بعيد استلمت ابتسامته الغريبة ... اذا أردت عباءتك ... فتعالي خذيها !

ـ سليم ... اعطني اياها !

ـ أتقدرين ؟.. خذيها بيدك !.. لا تبيعي علي قوة .. كفى !

لم تراودها أية فكرة غير أن تقبل هذا التحدي ، هذي الجرأة غير المعهودة فيه . تقدمت اليه .. راح يبتعد ... هي تتقدم منه بعناد ... وهو يتراجع نحو زاوية الحائط المثلم بارتباك... يتراجع وعيناه العطشتان

تمتصان كل قطرة ماء على ثوبها الملتصق بجسدهـــا ، تمتصان كل جزء منه (كان خالها يقـول لأمها والحنق يملأ فكيه : ألف مرة أقول لها لا تدخلي الماء وهناك رجل على اليابسة !) .

كان يدلي بالعباءة بين يديه ويناور (أين تروحين مني يا نبعة ؟!) .. وهي تهمّ بحركة ما . حركة ذكية جسورة تلك التي ارتسمت في بالهـــا . دقات قلبهـا تسارعت . نغمة غامضة . هجمت . حـــاول لفها . أمسكت بطرف منها ودفعت صدره باليد الاخرى . الا انه أمسكها من خصرها بقـــوة . (من أين أتته هذه القوة ؟!) وجرها اليه . وبانشداه وخبل وضيق صدر راحت كفّاه تتصرفان .. صدرها .. تحت.. ظهرها.. فوق . قبّلها في عنقها . لاهبة كانت القبلة . ونبعـة الجسورة المعاركة التي لا تلين سرت فيها رعدة لا تدرك سرها . أي برق شفاف صعق روحها ؟!

لقد صعد اليها من أماكن هجـوم أصابعه المتوترة وخز لذيذ .. مثل كهرباء . اعتصرتها نشوة لم تحسهـا قط . نشوة خيل اليها انها جففت كل بقعة فيها . ثم انفلتا فجأة اذ أحسّا برأسيهما يدوران . خطفت العباءة منه ولبستها وهي تتعثر ، تاركة سليم يترنح دائخا في الزاوية . كان زورق الخال قد اقترب من الجرف عندما رآها تدخل بثوبها المبتل بينما يتمشى سليم متجها نحو داره .

ـ اذا رأيتها تسبح فـي الشط مرة أخرى ... سأفصم رقبتها فصما !

لقد وجدت نفسها منذ ذلك الاشتباك مبتلاة بنغز رهيف داخلها . نغز لا مفر منـــه . وليتها ظلت على سباحتها في الشط ، فالشاطىء الجديد الذي دعتهـــا مويجاته اليه ، شاطىء صعب . شاطىء لم يألف الاذرعة ولا القوارب . بصمت راحت تسبح فيه . كان ثوبها في أغلب الاحيان يحمل قطعا صغيرة من الجص حين تدخل. وكانت الأم تصمت . تصمت لكن يأكلها القلق . ورغـم توصيات الخال (خلّي بالك عليها ... نبعة هذه !) فان أخاها كان هادئا يكنّ لها شيئا غير الرجولة القبلية وغير التسلط . شيء من الطيبة والتهيب يرقد في قلبه .

يوميا تجيئهم بشيء . فمرة ينط من صمتها قط اسمه : محو الامية ، ومرة تتفرقع بالونة اسمها مكبس التمور ، ومرات ... المشروع !

ـ لو كان في يدي لجعلتك تشتغلين معي .

ـ أسكت يا سليم ... تريدني أن أرجع ملطخـة بالجصّ مثلك ؟!

ـ وما بها ؟.. ندخل الماء معا !

ـ أوي ...

تحسرت وأردفت : ومتى يكون في يدك .. متى ؟!

ـ بعد ...

لم يعودوا يفهمون من أخيها شيئا سوى مزيد من التأسي له . جـــلده لم يعد جلد آدمـي قط . عيناه جاحظتان . شفتاه مزرقتان مثل صدفتين بحريتين . الأم عادت لتبكي وهي تبتهل . بعض النـــاس تهامسوا فيما بينهم لاعنين الشيطان، والبعض الآخر لعنوا السبب في كل هذا . والآخرون غير قادرين على لعن أحد. وفي الهدوء فقط ينتظم صوت ارتماء شبكة خالها على الماء مع صوت الجسد المتجلد وهو يشقّ الماء وينقب فيـه مثل كوسج جائع .

كان على قدميها أن تحملا كل ثقل وتخطو نحـو الجسر . ذلك الجسر الحديدي الجديد الذي يعبر بها الى المشروع . وخيل اليها فـي لحظة اختـلاج جاورت روحها ان الجسر بنوه لها . عندما كان الجسر خشبيـا تصرّ ألواحه من القدم ، كانت تعبره وهي تحمل طست السمك لتبيعه في العلاوي . أما الآن فقد صمم هـذا الجسر من الحديد كي يحمـــل خطواتها ، وهي عندما تدوس عليه والناس من الجانبين ذاهبون وآيبون يعود احساسها الى التصارع . فمرة ينبئها بأن لا مكان لهـا في المشروع ، ومرة يدغـدغ ساعديها . ذات التصارع الذي أربكها قبل أن تقتحم مكبس التمور وقبل أن تلج مركز محو الامية رقم (٢) .

تلملمت في رأسها خميرة مصطخبة من الكلمات . كلمات ساخنة تسيح منها تهديدات الخال وممنوعاته . كلمات أمها اللينة النصوحة ، تشتبك مع الاحرف المنورة التي تلفظهـــا سليم ... ما عليك ســوى أن تـذهبي وتمدّي كفيك ... انه مشروع كبير ... كبير !

ولما مدت كفيها ، تطلعت حولها . كثير من الشباب العمال الذين لمحتهم يرمقون كفيها الممدودتين لم يكونوا سوى أولئك الاولاد الذين كانوا يقضون النهارات القائظة، يسبحون قرب الدار ، ويتسلقون هـذه النخلة وتلك ، ويتهامسون حولها ، ومرات يضحكون بصـوت عـــال ويتشاجرون أمامها ويغنون . انهم الآن يحدقون وفـي دواخلهم شعور واحد ، هـــذه الـ (نبعة) كـل شيء تفعل ... كل شيء يطلع من رأسها !

عندما استلمت وعدا ، تعالي غدا .. ومن الفجر ! وهمّت بالخروج ، نظرت اليهم ببريق جديد ، كأنهـــا تقول لهم : انني أختلف عما قبل .. ولن أضرب واحـدا منكم أو أشبعه ماء بتغطيس رأسه .. لا .. لا يمكن !

لم يكن الاهل قد استقبلوا العاصفـة بعد . كانوا حول صينية العشاء، حين كانت (نبعة) تجمع الدجاجات لتدخلها تحت السقيفـــة ، وفيما هي منحنية تطوق بذراعيها دجـــاجة قافزة ، أحاطت كفّان بخصرهـــا وسحبتها . جرّها سليم جوار الدار وبجنب شجـرة التين المائلة نحو النهر ، غير عـــابىء بهمسها المحذر ، وتمنعاتها الانثوية . كانت تريد أن تخبره بشيء ، لكن

كفّيه وشفتيه لا تدعها تنبس بحرف . هـذا التعطش الذي يلاقيها به في الظلمة تلتذ له ولكن فقط لو يهدأ ويستمع ! وهمست له . اهتزت شجرة التين ، ثلاثة جذوع التحمت ، التحاما أوجع عظامهما ذلك الوجع المكهرب الممتلىء زمنا ودفئا ... كفى سليم ... نام الدجاج .. هيا .. رح ... قد يطلع خالي !

كان أخوها وخالها ينحدران في القارب كل فجر مع التيار ومشبكتهما منشورة على مرمى النهر ، ولا يأتيان الا عند الغروب ، ولم يكونا عالمين باشتغال نبعة ، الأم وحدها تدري والقلق لها وحدها .

سقطت أكياس السكر والشاي والخضروات التي تسوّقها مع ابن أخته بعد بيع سمكهم ، حين رأى (نبعة) تخرج من بوابة المشروع الحديدية ووراءها وأمامها أفواج من العمال ، ولم يكن هو من الناس الذين يحاولون تكذيب أعينهم أو التردد في التصديق ، كان حاد البصر ذا ملامح خشنة . ظل أخوها مذعورا وعدل عن الانحناء على الاكياس حين لاحظ جحوظ عيني خاله وفكّيه المصطكين غضبا : « لو كنت رجلا ... لكسرت وقاحة أختك .. وأقعدتها الدار !.. » .

وجدت (نبعة) القارب مربوطا ، فتمنت لو ان ملكا من السماء يحملها ويطير بها ولا تدخل الدار . دهر بكامله مرّ عليها قبل أن تمضي بخطاها المتعبة ورأسها المهزوز بأصوات الماكنات نحو باب الصفيح . والحقيقة ان خالها لم يتحمل الانتظار الى أن تدخل ويهجم عليها ، فقد كان يراقبها من بين الشقوق وكانت كفه تمسك العصا الغليظة بعروق متوترة تكاد تنفجر من جلدها . انهال عليها . فلتقع الضربة أينما تقع . لم تشفع لها الأم المولولة المتشبثة برداء أخيها . وكانت (نبعة) اعياء وكبرياء ترفض أن تصيح أو تبكي . كانت تتلوى ... تتلوى وتدمدم . لا السماء ولا الارض اتسعتا لتلك الدمدمة الرهيبة التي شلّت يد خالها ودعته يكفّ وهو يلهث : « اذا خرجت من هذا الباب.. أقطع قدميك ... ه .. وبالله سأرمي جثتك في الشط ... عذبتنا وفضحتنا ! » .

لم ترضخ ، لكن الاوجاع أقعدتها . أفاقت في الفجر . لم تقدر على تحريك جسدها . كانت تحسّ بالتورم في كل مكان ، أشبه بدمية سحر مشنجة غرسوا فيها الابر . وكانت الأم تتمتم فوقها : « اقعدي .. وكفّي عن فعل أي شيء .. على كيس العباس أبي فاضل ... قليل علينا أنينك طول الليل ؟! لم أنم .. خالك ظل يتقلب .. وأخوك خرج وقعد هناك على الشط لا أعرف ما به .. ألا يكفينا هذا ؟! » .

انتظر سليم أن يقوقىء الدجاج وتخرج . لكن ذلك لم يحدث .

ـ خالي ضربها ... ضربها ... أماتها من الضرب !

أجاب أخوها الصغير ، سليم الذي أمسكه من كتفيه النحيفتين وراح ينظر الى عينيه علّ (نبعة) تطل من زاويتيهما .

ـ عصا كبيرة ... أتوا له بها .. البدو !

كل ما حصل غدا باعثا للهم . الهم المؤبر الذي ينغز وينغز حتى يتورم الرأس والقلب والذاكرة . لو يصعد الى قمة شجرة لن يتركه . لو يرقد خلف ماكنة ويضيع سمعه في ضجيجها لن يتركه . لو يأخذه قارب وينحدر به فلن يتركه . لو يفتح كتابا وينام في أسطره لن يتركه . انه الآن يتخيلها ممدودة تمتد في بدنها الاورام والكدمات . التأوه يصله عبر هواء غامض .

... أي هواء هذا ؟!

نفض رأسه بعنف . وراح يحوم حول الدار كل ليلة .

حركت أطرافها قليلا ، ثم نهضت . كانت الريح في الخارج باردة وسريعة اختضّت لها أوصالها المتخشبة . الليل منهزم حتما . شجرة التين منهمكة بسجودها الهادىء على الضفة . اقتربت منها . خافت وابتعدت لسبب كامن في قلبها . ألقت عباءتها . خلعت نعلها ، وبهدوء المصلّين توجهت الى الشط . كم يسعدها الالتقاء به ... أفصم رقبتك !!.. كم يحلو لها التمرغ على طينه ... أقصّ قدميك اذا خرجت !.. فليضمها. دارت حول نفسها دورتين وقفزت الى فوق ... بالله سأرمي جثتك في الشط !!.. وبسطت ذراعيها كحالمة وهي تحدق بشغف في أضواء المشروع الملونة المنعكسة على سطح الماء . لامست قدماها المويجات الصغيرة فتوقفت لحظة . ثم تقدمت ، تتسلقها الامواج وتغيب أكثر فأكثر في العمق .

وفي الوقت الذي يتمتم خالها بوقار وخوف : وجدتها ! وهو يسحب الجثة بشبكته ، يصرخ أخوها العاري الصدر والحرارة تسري فيه فجأة : ها هي ! ويجعل الناس يتطلعون نحو تأشيرة اصبعه . انه يركض بجوار الضفة ويؤشر بفرح نحو الافق في الضفة الاخرى ... مثل رأس حصان يجمح ... تشقّ الموج بذراعيها باتجاه بنايات المشروع ورافعاته .. باتجاه نقابة سليم.. وكأنها تقول له : هيا الحق بي .. اذا كنت تقدر .. هيا !

ويمسك أخوها الصغير بيد صديقه ويحثه : هيا ! بنت (نبعة) البيت... نروح اليه .. سيوصلنا أخي.. هيا .. أما قلت لك ؟!

ولا يلبث المتجمعون أن يتركوا خالها والجثة وشبكته والأم البائسة ، ويهرولوا في الاتجاه ذاته ... ويخوضوا في لجة التيار .

البصرة (العراق)